الباب الخامس

الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة

الإذن الإلهى بالقتال :

قال ابن إسحق :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ، ولم تحلل له الدماء ، وإنما يؤمر بالدعاء إلى الله ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين ، حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم عن بلادهم ، فهم من بين مفتون فى دينه ، ومن بين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم ، منهم مَنْ بأرض الحبشة ، ومنهم مَنْ بالمدينة ، وفى كل وجه .

فلما عتت[1] قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفوا من عَبَدَ الله ووحده ؛ وصدّق نبيه واعتصم بدينه ، أَذِنَ الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال ، والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم ، فيما بلغنى عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى فى سورة الحج :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ

(١) عتت : تجبرت وازدادت كفراً .

فى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) ، أى إنى أحللت لهم القتال لأنهم ظُلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله ، ويعنى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين ؛ ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه فى سورة البقرة : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) ، أى حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ، ويعبد الله وحده فلا يعبد معه غيره .

انتشار الإسلام بالمدينة :

ولما عاد أهل بيعة العقبة من الأنصار إلى المدينة ، أظهروا الإسلام بها ، ثم أخذ المسلمون يهاجرون سرًّا من مكة إلى المدينة ، ولم يبق بمكة مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا اثنان من السابقين الأولين هما سيدنا أبو بكر وسيدنا علىّ رضى الله عنهما .

هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة :

فلما أَذِنَ الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » .

قال ابن إسحق :

فخرجوا أرسالا (جماعة بعدها جماعة) ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

أبو سلمة أول المهاجرين إلى المدينة :

قال ابن إسحق :

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من

المهاجرين من قريش من بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله (وهو ابن عمة رسول الله — برة بنت عبد المطلب — وأخوه من الرضاعة) هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة . وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة . فلما آذته قريش . وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً . وقد حضر بدراً ، وجرح فى غزوة أحد والتأم جرحه . ثم عاد ونغر عليه[١] ومات به . وقد كبر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع تكبيرات فقالوا : يا رسول الله أسهوْت أم نسيت ؟ فأجاب : لم أسه ولم أنس ، ولو كبرت على أبى سلمة ألفًا كان أهلا لذلك .

هجرة السيدة أم سلمة رضى الله عنها :

واقرأ فى عجب وإعجاب ما كان فى هجرة زوجته السيدة أم سلمة ، التى أسعدها الله بزواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد استشهاد زوجها أبى سلمة .

فقد قالت فيما رواه بسنده ابن إسحق :

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحَّل[٢] لى بعيره ثم حملنى عليه . وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى . ثم خرج بى يقود بعيره . فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها . أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده . فأخذونى منه . قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة . فقالوا : لا والله . لانترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبها (أى زوجها) . قالت : فتجاذبوا بُنَىَّ « سلمة » بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق به بنو عبد الأسد . وحبسنى بنو المغيرة عندهم . وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة . قالت : ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى ، قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس فى الأبطح . فما أزال أبكى

---

(١) نغر عليه : عاوده ألم الجرح .

(٢) جهز البعير للسفر .

حتى أمسى سنة أو قريبًا منها ، حتى مرّ بى رجل من بنى عمى – أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى ، فرحمنى . فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة . فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

قالت : فقالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت ، قالت : ورد بنو عبد الأسد إلىّ عند ذلك ابنى ، قالت : فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى . ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، قالت : وما معى أحد من خلق الله ، قالت : فقلت أتبلّغ [١] بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ، حتى إذا كنت بالتنعيم (من ضواحى مكة) لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، أخا بنى عبد الدار . فقال لى : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجى بالمدينة ، قال : أومامعك أحد ؟ قالت : فقلت : لا والله ، إلاّ الله وبنىّ هذا .

أيها القارئ الكريم : ألاَ يثير ذلك إعجابك من يقينها وعزمها وتضحيتها فى سبيل الله ، وكيف لايثير إعجابك أن ترى سيدة تركب ناقتها مع طفلها الصغير نحواً من أسبوعين فى صحراء شاسعة حتى تبلغ المدينة ، وليس معها من يعينها على مشقة الرحلة الطويلة على ظهر الإبل ، مع ما تحتاج إليه من إناخة الدابة ، وإنزال الرحل والعلف ثم شدّ الحمل عليها ، فضلا عن رعاية طفلها الكسير !!

لاشك أنه موقف يثير عطفك وإشفاقك ، ولكن الله أرحم بها منى ومنك . فانظر كيف دبّر الله لها أمرها على غير ترتيب منها ، فسخّر لها رجلا ذا مروءة عربية فطرية فأعانها ويسّر أمرها حتى أبلغها المدينة ، واستمع إليها وهى تحكى ما كان منه :

قالت رضى الله عنها : قال عثمان : والله مالك من متْرَك [٢] . فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معى يهوى بى . فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه . كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى . حتى إذا نزلت استأخر

---

(١) أستعين .

(٢) لايجوز أن أتركك وحدك .

ببعيرى فحط عنه ، ثم قيده فى الشجرة ، ثم تنحى عنى إلى الشجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى ، وقال : اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك فى هذه القرية — وكان أبو سلمة بها نازلا — فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعًا إلى مكة .

قال : فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

أقول : وكان عثمان يوم هجرته بأم سلمة على الكفر ، وإنما أسلم فى هدنة الحديبية وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وإلى عمه شيبة بن عثمان مفاتيح الكعبة فى عام الفتح . وقد قتل عثمان بن طلحة رضى الله عنه شهيداً بأجنادين فى أول خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

قال ابن إسحق :

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فيها بالهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن ، وإلا علىّ بن أبى طالب وأبو بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

مؤامرة يكشفها الله تعالى :

قال ابن إسحق :

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله

صلى الله عليه وسلم إليهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة — وهى دار كانت لقصى ابن كلاب ، كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، يتشاورون فيما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه .

أقول : وأطلعه الله على ما تشاوروا فيه بقوله تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) ، فقد اختلفت آراؤهم بين حبسه فى بيت يغلقونه عليه ، فخافوا أن يقاتلهم أهله بدافع العصبية ، ويخلصوه من أيديهم ، وبين أن يخرجوه من مكة ، فخافوا أن يجتمع الناس عليه لحلاوة منطقه فيقاتلهم بهم ، وبين أن يختاروا من كل بطن من بطون قبائلهم شاباً جلداً ليقتلوه قتلاً جماعياً فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حربهم ، فإذا طلبوا الدية قدموها لهم . وهذا الرأى الأخير هو الذى استحسنوه بعد التشاور فى دار الندوة .

الإمام علىّ يفدى الرسول بنفسه :

يقول ابن إسحق :

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه ؛ ثم يقول بن إسحق : فلما كانت عتمة من الليل ، اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم . قال لعلىّ بن أبى طالب : نم على فراشى وتسجّ[1] ببردى هذا الحضرمىّ الأخضر ، فنم فيه . فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك إذا نام .

خروج الرسول وهم لا يشعرون :

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ حفنة من تراب فى يده . وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم

(١) تسج ببردى : اجعل ثوبى غطاء لك .

وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس :

(يَس * وَالْقُرآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) ، حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل إلَّا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قال ابن إسحق : فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيَّبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم ؟ قال ابن إسحق : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علىّ رضى الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا .

قال ابن إسحق :

حدثنى من لا أتهم ، عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قالت : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، والخروج من مكة من بين ظهرى قومه ، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة ، فى ساعة كان لا يأتى فيها .

الإذن بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم :

قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلاّ لأمر حدث . قالت : فلما دخل . تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عنى من عندك ، فقال : يا رسول الله إنما هما ابنتاى . وما ذاك ؟ فداك أبى وأمى ، فقال : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة . قالت : فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله . قال : الصحبة . قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ ، ثم قال : يا نبىّ الله : إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا . فاستأجرا عبد الله بن أريقط — وكان مشركًا — يَدُلُّهما على الطريق . فدفعا إليه راحلتيهما . فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .

قال ابن إسحق :

ولم يعلم — فيما بلغنى — بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا علىّ بن أبى طالب . وأبو بكر الصديق . وآل أبى بكر . أما علىّ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه . وأمره أن يتخلّف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلاّ وضعه عنده . لِمَا يعلم من صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم . أقول : فانظر إلى غرابة موقفهم منه . فإنهم كانوا واثقين من صدقه وأمانته حتى ائتمنوه على نفائسهم . حتى إذا دعاهم إلى الله كذبوه . مع أنهم لم يجربوا عليه كذبًا من قبل . بل وثقوا بصدقه كل الوثوق ، وصدق الله سبحانه إذ يقول فى سورة الحج :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فى الصُّدُور) .

الاختباء فى الغار :

قال ابن إسحق :

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبا بكر بن أبى قحافة ، فخرجا من خوخة[١] لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار بثور[٢] فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها[٣] عليهما ، يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما .

وفاء أبى بكر :

قال ابن هشام :

وحدثنى بعض أهل العلم أن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال :

انتحى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حية يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

أقول : أرأيت كيف كان الصدّيق رضى الله عنه يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يفتديه بنفسه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو حب لله ، وما دام الصدّيق رضى الله عنه قد بلغ الذروة فى حب الرسول الأكرم ، فقد بلغ الذروة فى حب ربه الأعظم ، فكان المؤمن الأول فى هذه الأمة بين المؤمنين وقد بلغ عددهم الملايين ، وأثبت الله له الصحبة فى كتابه الكريم فى قوله تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فى الْغَارِ إِذ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا) ، فمن أنكر صحبة

---

(١) باب صغير .

(٢) جبل بأسفل مكة .

(٣) يرجع بالغنم بعد أن ترعى إلى الغار لتضيع آثار أقدام المتصلين بالرسول وصاحبه .

أبي بكر فقد كفر ، لأنه يكذب كلام الله .

وحق لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن يغبط الصدّيق على تلك الصحبة فى الغار ، فقد كان يقول منوهًا بفضل الصديق رضى الله عنه : كنت أحب أن يكون لى يومان من أيام أبى بكر بحياتى كلها ، يوم أن صحب الرسول فى الغار ، ويوم أن خالفنا فى حرب أهل الردة[1] .

كما كان يقول : رحم الله أبا بكر ، إنه كان سيدنا وأعتق سيدنا (يشير إلى بلال ويلقبه بالسيادة ، فإن بلالا رضى الله عنه عُذّب فى الله ، فاشتراه الصدّيق من أمية بن خلف وأعتقه ، فما أعظم ديننا الذى ساد به العبيد ، ولا فضل فيه لعربىّ على عجمىّ إلا بالتقوى) . وما أعجب أمر سيدنا أبى بكر ، فقد كان ثانى اثنين فى الإيمان ، وثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى إمارة الحج (أول أمير للحج هو سيدنا عتاب بن أسيد ولاّه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعد الفتح ، كما ولاّه إمارة الحج) ، وثانى اثنين فى الخلافة ، وثانى اثنين فى الروضة الشريفة حيث مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحق :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثًا ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم ، وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره معهم ، يسمع ما يأتمرون به ؛ وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .

وكان عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر ، فاحتلبا وذبحا ؛ فإذا عبد الله بن أبى بكر غدا من عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه

---

(١) وهم الذين امتنعوا عن أداء الزكاة ، فحاربهم عليها الصديق رضى الله عنه ، وكان الصحابة يتخوفون من حربهم وهم كثرة ، ولكنه رضى الله عنه حاربهم ليأخذ منهم حق الله ، وقال قولته المشهورة : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه للنبى صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، أينقص الدين وأنا حى؟» . وتغلب رضى الله عنه على أهل الردة ، وحفظ الله الإسلام على يديه فجزاه الله عنا كل خير .

ببعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصامًا (حبلا تربط به) فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس لها عصام ، فتحل نطاقها فتجعله عصامًا ثم علقتها به ، فكان يقال لأسماء بنت أبى بكر : ذات النطاق لذلك ؛ قال ابن هشام وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين ، وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها اثنين فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر .

فلما قرب أبو بكر رضى الله عنه الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم له أفضلهما ثم قال : اركب فداك أبى وأمى .

فقال رسول الله صلى الله ، عليه وسلم : إنى لا أركب بعيراً ليس لى ، قال : فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، قال : لا ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا ، قال : قد أخذتها به ، قال : هى لك يا رسول الله ، فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضى الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق .

أقول : أرأيت كيف علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أكثر ما علمنا ، أن نجاهد فى الله بأموالنا ، كما نجاهد فيه بأنفسنا ، فقد أبى أن يقبل الناقة هدية من صاحبه ، مع وثوقه فى صدقه وإخلاصه فى تقديمها هدية ، ولكنه أبى إلاّ أن تكون بالثمن ليتحمل النفقة فى سبيل الله عز وجل!! . وكيف لايفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وكيف لانتأسّى به ، ونجاهد فى سبيل الله بأموالنا وأنفسنا وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ناصحًا لنا فى سورة الصف :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ). وما أروع آيات الله البيّنات لمن تدبرها وعقلها .

قال ابن إسحق :

حدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر . فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يابنت أبي بكر ؟ قالت: قلت: لا أدرى والله أين أبي ؟ قالت: فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشًا خبيثًا ، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى .

أقول : أرأيت إلى القسوة التي طمست على قلبه بكفره ، فحملته على أن يضرب فتاة صغيرة فى سن الطفولة ، وهو شيخ كبير لايرى فى ذلك عاراً ، مع أن بعض الحيوان يأبى لنفسه أن يعتدى على امرأة ، وأعلم من ذلك الأسد والجمل ، لأن كلا منهما يستضعفها بإلهامه الفطرى ، ويراها أضعف من أن يعتدى عليها . فما أتعسه من إنسان فقد المروءة التي تحلّى بها بعض الحيوان .

قالت أسماء : ثم انصرفوا ، فمكثنا ثلاث ليال، وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر غناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أهل مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهْنِ بنى كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

ويروى أن حسان بن ثابت لما بلغه شعر الجنى وما هتف به فى مكة قال أبياتًا مطلعها :

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم ... وقد سُرّ من يسرى إليهم ويغتدى

---

(١) هنيئاً لبنى كعب .

قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن وجهه إلى المدينة وكانوا أربعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضى الله عنه وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما .

معجزة نبوية :

واسم أم معبد المشار إليها فى الأبيات المتقدمة ، عاتكة بنت خالد ، وهى امرأة من بنى كعب من خزاعة ، وقد مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وكانت سيدة برزة[١] جلدة تسقى وتطعم ، فسألوها لحمًا وتمرًا يشترونه منها ، وكانوا جياعًا ، فلم يجدوا عندها شيئًا ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت هى أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟

قالت : بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبًا فاحلبها ، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها ، فسمى الله تعالى ، ودعا لها فى شأنها ، فتفاجت[٢] عليه ودرت واجترت ، ودعا بإناء فحلب فيه ثجًا[٣] حتى علاه لبنها ، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب آخرهم ، ثم صب فيه ثانيًا بعد بدء حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها ؛ ثم بايعها على الإسلام ، ثم ارتحلوا عنها ، فما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافًا ، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أين لك هذا يا أم معبد ؟ والشاة عازب حيال[٤] ، ولا حلوب فى البيت ؟

قالت : لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك ، من حاله كذا وكذا ، ووصفته له فى كلام طويل كله حق ، قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذكر

---

(١) المرأة البرزة هى العفيفة التى تبرز للرجال وتتحدث معهم ، وهى المرأة التى أسنت وخرجت عن حد المحجوبات .

(٢) أفسحت له ليتمكن من الضرع .

(٣) سال بكثرة .

(٤) لم تحمل .

لنا من أمره ما ذكر بمكة ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

فطنة أسماء :

قالت أسماء رضى الله عنها : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، وكان خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه ، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت : كلا يأبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، قالت فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة (طاقة) فى البيت الذى كان أبى يضع ما له فيها ، ثم وضعت عليها ثوبًا ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم ؛ ولا والله ما ترك لنا شيئًا ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

أقول وما أعجب أثر الهدى فى سلوك أهل الإيمان حتى الأطفال منهم ، وما أعظم سيدنا أبا بكر فى إيثار الله على أهله وماله ، وما أسعده بصحبة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة !

جزع بنى هاشم :

وقد جزعت بنو هاشم لخروجه صلى الله عليه وسلم من بينهم ، حتى لقد قالت عمته عاتكة بنت عبد المطلب فى أسفها على خروجه ، مع أنها كانت لاتزال على دين قومها :

أعينى جودى بالدموع السواجم ... على المرتضى كالبدر من آل هاشم
على المرتضى للبر والعدل والتقى ... وللدين والدنيا بهيج المعالم
على الصادق الميمون ذى الحلم والنهى ... وللفضل والداعى لخير التراحم

مائة ناقة لمن يرّد الرسول على قريش :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم ؛ قال سراقة بن مالك : فبينا[1] أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا علىّ آنفًا ، إنى لأراهم محمداً وأصحابه .

قال سراقة : فأومأت إليه بعينى : أن اسكت ، ثم مكثت قليلا ، ثم قمت فدخلت بيتى ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى (درعى) ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره »[2]

معجزة أخرى نبوية :

ثم مضى سراقة يقول :

فأبيت إلاّ أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى . فسقطت عنه فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، فأبيت إلاّ أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان الإعصار .

أرأيت أيها القارئ العزيز كيف عصم الله رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يستطع سراقة أن يمسه بسوء ، اللهم احمنا بحماك ، واهدنا بهداك .

قال سراقة : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر ، قال : فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقة أنظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر :

---

(١) بينما .

(٢) أى السهم المكتوب فيه هذه الكلمة ؛ أى لن تتمكن من الإضرار به .

قل له : وما تبتغى منا ، فقال ذلك أبو بكر ، قال سراقة قلت : تكتبون لى كتابًا يكون آية بينى وبينك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب له يا أبا بكر ،

قال سراقة : فكتب لى كتابًا فى عظم أو رقعة ثم ألقاه إلىّ ، فأخذته فجعلته فى كنانتى ثم رجعت ، فسكتُّ فلم أذكر شيئًا مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرغ من حنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة (ماء بين الطائف ومكة) قال : فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار .

إسلام سراقة رضى الله عنه :

قال سراقة : فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : إليك إليك ، ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه (ركابه) كأنها جُمَّارة[1] ، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لى ، أنا سراقة ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، ادنه ، قال : فدنوت منه فأسلمت ، ثم تذكرت شيئًا أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فما أذكره ، إلا أنى قلت : يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى[2] ، هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟ قال : نعم فى كل ذات كبد حرَّى[3] أجر ، قال : ثم رجعت إلى قومى ، فسقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى (يريد زكاة ماله) .

وقد قالوا إن أبا جهل لام سراقة حين رجع مكة بلاشىء ، فقال سراقة ردًّا عليه :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

---

(١) شديدة البياض كجمارة النخل .
(٢) إبل الغير تأتى لتشرب من الحوض الذى يسقى منه إبله .
(٣) عطشى .

عليك بكف القوم عنه فإننى ... أرى أمره يوما ستبدو معالمـــه
بأمر يود الناس فيه بـــأسرهم ... بأن جميع الناس طرًّا يسالمـــه

الوصول إلى قباء :

قال ابن إسحق :

وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء ، ونزل على بنى عمرو ابن عوف لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحا وكادت الشمس تعتدل .

ويحدث ابن إسحق بسنده عن بعض الصحابة قالوا :

فلما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوكّفنا (انتظرنا) قدومه ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حَرَّتنا[1] ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة ، حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وإنا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته :

يا بنى قَيْلَـةَ (هم الأنصار ، وقيلة جدهم) : هذا جدكم (حظكم السعيد) قد جاء ، قال : فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فازدحم الناس عليه وما يعرفونه من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكر فأظلّه بردائه ، فعرفناه عند ذلك .

أقول : فلله ما أوفاك أيها الصدّيق الأكبر والعلم الأشهر ، فقد علّمت المؤمنين

---

(١) الحرة : هى أرض ذات حجارة سود .

كيف يكون حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أسعد من قلدك وأخذ عنك ذلك الحب الخالص .

يوم الاثنين :

وكان وصوله إلى قُباء فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول حين اشتد الضحا ، وما أعجب يوم الاثنين فى تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ولد يوم الاثنين ، ونُبئ يوم الاثنين وخرج من مكة يوم الاثنين ، ووصل إلى ضواحى المدينة (قباء) يوم الاثنين ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين ، فما أبرك يوم الاثنين . وقد كنت فى طفولتى آنس بيوم الاثنين ولا أدرى سر ذلك الأنس ، فلما كبرت ووقفت على السيرة النبوية العطرة انكشف لى ما كان خافياً علىّ ، ولله فى خلقه شؤون ، وما أراده يكون .

فى قباء :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء فى بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجد قباء .

أقول : وهو أول مسجد بنى فى الإسلام ، وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من وضع حجراً فى قبلته ، ثم جاء أبو بكر فوضع حجراً إلى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ الناس فى البنيان ..

قال ابن إسحق :

ثم خرج صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم يوم الجمعة ، فأدركته رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى [1] ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة .

---

(١) سمى هذا المكان مسجداً باعتبار أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيه وسجد .

الأنصار يرحبون :

وكانت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بإذن ربه كما علمت ، وقد وصل إليها فى رعاية الله سالمـًا غانمـًا ، فتلقاه أهلها بالفرح الغامر ، وغنّت بنات النجّار بين يديه الأغنية المباركة :

طلع البـدر علينـا   من ثَنِيّات الوداع
وجب الشكر علينـا   ما دعا للـه داع
أيهـا المبعوث فينـا   جئت بالأمـر المطاع

وكانت بيوتات الأنصار يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة ، ويمسكون بزمام الناقة التى يركبها صلى الله عليه وسلم ، فيقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، حتى إذا أتت إلى دار بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ مرْبد (موضع يجفف فيه التمر) لغلامين يتيمين من بنى النجار .

فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رَحْلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل عن المربد لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان لى وسأرضيهما فيه فاتَّخِذْه مسجداً .

المسجد النبوى :

قال : فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعـدنا والنبى يعمـل   لـذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لا عَيْشَ إلاّ عيشَ الآخره   اللهمّ ارحم الأنصار والمهاجره

قال ابن إسحق : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

معجزة نبوية :

قال ابن إسحق : فدخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللَّبِن ، فقال : يا رسول الله قتلونى ، يحملون علىّ ما لايحملون ، قالت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وفرته (شعر رأسه) بيده ، وكان رجلا جعدا[١] وهو يقول : ويح ابن سميَّة ! ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية .

أقول : وقد قتلته فئة معاوية فى صفين ، فقال إمامنا علىّ كرم الله وجهه : الحمد لله الذى أرانى أنى على الحق . فانظر كيف تحققت المعجزة بعد أربعين سنة ، وصلوات الله على صاحب المعجزات .

قال ابن إسحق :

وارتجز علىّ بن أبى طالب يومئذ :

لا يستوى من يَعْمُرُ المساجدا يدأب فيها قائمًا وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا[٢]

أدب الأنصار :

قال ابن إسحق يحدث بسنده عن أبى أيوب الأنصارى قال :

لما نزل علَىّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل فى السفل (الدور الأول) وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت له :

يانبى الله ، بأبى أنت وأمى — إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون

---

(١) الشعر الجعد هو الملتوى ، وهو شعر عمار رضى الله عنه .
(٢) يبعد التراب عن نفسه .

تحتى ، فأظهر أنت فكن فى العلو . وننزل نحن فنكون فى السفل .

فقال : يا أبا أيوب : أرفق بنا و بمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .

أقول : أرأيت كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رأفته بمن يأتيه من المؤمنين ، وكيف كان يشق عليه تعبهم ، ولم لا وقد حلاّه ربه بوصفه الخالد : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

واستمع إلى بقية ما حدّث به سيدنا أبو أيوب ، لترى ما كان من أدبه مع النبى صلى الله عليه وسلم :

قال أبو أيوب رضى الله عنه : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفل المسكن وكنا فى علوه . فلقد انكسر حُب (إناء كبير) لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ، تخوفًا أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء فيؤذيه .

أول خطبة خطبها رسول الله :

قال ابن إسحق :

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، واستجمع له إسلام الأنصار ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلاّ أسلم أهلها وكانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى :

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمُنّ والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولاحاجب يحجبه من دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينًا وشمالا فلا يرى شيئًا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار

ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

قال ابن إسحق :

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابًا بين المهاجرين والأنصار ، وادَعَ فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم ؛ وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال — فيما بلغنا عنه ، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل — تآخوا فى الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب فقال : هذا أخى .

أقول : وليلحظ القارئ الكريم الشرف الكبير الذى خُصَّ به إمامنا على ابن أبى طالب بهذا الإخاء الذى شرفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حكمة المؤاخاة :

قال السهيلى : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشير ، ويشد أزر بعضهم ببعض . فلما عزّ الإسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة ، أنزل الله سبحانه فى سورة الأنفال : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ) ، يعنى فى الميراث ، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة ، فقال تعالى فى سورة الحجرات : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ، يعنى فى التوادد وشمول الدعوة .

الأذان للصلاة واستحكام الإسلام :

قال ابن إسحق :

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع إليه أصحابه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ،

وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوّءوا الدار والإيمان .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، حتى رأى عبد الله بن زيد صيغة الأذان فى رؤيا ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف : مرّ بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا فى يده ، فقلت له يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت ندعو به للصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وماهو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلاّ الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حىّ على الصلاة ، حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح ، حىّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

قال : فلما أُخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتًا منك ، قال : فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه يقول : يا نبىّ الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلله الحمد على ذلك .

وفى رواية أخرى : ائتمر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس ، إذ رأى عمر بن الخطاب فى المنام قائلا يقول له : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب عمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليخبره بالذى رأى ، وقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم الوحى بذلك ، فما راع عمر إلاّ بلال يؤذن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحى .

غزوة بدر الكبرى :

ألف الله بين الأوْس والخزرج بأخوة الإسلام . وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، فصار المسلمون يداً واحدة على أعدائهم . وقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بعون الله وقوته من نصر إلى نصر .

وكانت بداية النصر المبين غزوة بدر الكبرى ، وهى التى ظهرت وتجسَّمت فيها شخصية المسلمين ولو كره الكافرون . فى هذه الغزوة كتب الله للمسلمين أول انتصار حربى وأروعه على كفار مكة الذين كادوا السنوات الطوال للإسلام وأهله واضْطَرُّوا المسلمين أن يخرجوا من ديارهم لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله .

وقام القتال بين المسلمين وأعدائهم فى بدر بغير ميعاد سابق ، ولا باستعداد مدبر ، وكأن الله تعالى أراد أن يكافئ المسلمين على التآخى الصادق ، فآتاهم النصر العزيز المفاجئ ، ليكون بداية سعيدة تقودهم من نصر إلى نصر فى الغزوات اللاحقة .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عير عظيمة لقريش ، تحمل أموالهم وتجارتهم ، فقال لأصحابه : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ، فخرج بعض الصحابة وتخلف البعض حيث لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حرباً .

ولما علم أبو سفيان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استنفر أصحابه ليأخذوا العير ، اتصل بأهل مكة واستنفرهم ليدافعوا عن العير ، وقد أفلتت العير ، ولم يتمكن المسلمون من وضع يدهم عليها ، وجاءت قرات قريش ، وعلمت بأن العير أفلتت ، ورأى بعضهم أن يرجعوا إلى مكة بغير قتال ، ولكن أبا جهل أبى وقال : والله لا نرجع حتى نرد بدراً (وكانت بدر من مواسم العرب) فنقيم عندها ، ثلاثاً ، وننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان (الجوارى) ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فأمضوا رأيه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من المدينة لبضع ليال مضت من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وأتاه الخبر بأن قريشاً خرجوا من مكة

ليمنعوا عيرهم ، فاستشار أصحابه صلى الله عليه وسلم ، فأحسنوا القول وأظهروا الطاعة التامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يسائل القارئ نفسه : ولماذا يستشير الرسول أصحابَه ، وهو المطاع أمره بلا تعقيب ؟ والجواب أن الله تعالى قال له : (وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ) . وقال فى المؤمنين : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) ،فسنّ لنا صلى الله عليه وسلم الشورى فى الأُمور العامة ، وسبقنا بذلك كل الأُمم ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأُخرى فإن بيعة العقبة قامت على أن يحمى الأنصار الإسلام فى المدينة ، وكانت بدر خارج المدينة وبينها وبين المدينة نحو ١٥٠ كيلومترًا .

ولما رأى رسول الله قوات قريش قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحْنِهِمْ (أهلكهم) الغداة .

وقد وعد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمكنه من أعدائه ، إما بالاستيلاء على عير أبى سفيان أو بالنصر على جيش قريش . وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة لأنفال : (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكون لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) .

وقد أراد الله أن يقع القتال بعد أن أفلتت العير فكانت الحرب ذات الشوكة ، وقد كانت معنويات الصحابة قوية على الرغم من أنهم حين خرجوا من المدينة لم يكن فى حسابهم قيام الحرب مع أعدائهم ، ولنرى صورة مشرقة لشجاعة الصحابة ومعنوياتهم القوية فى لقاء أعدائهم الكافرين اقرأ ما قاله عندما شاورهم الرسول فى القتال كل من سيدنا المقداد بن عمرو وسيدنا سعد بن معاذ :

فقد قال الأول : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ،فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : (اِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هٰهُنَا

قَاعِدُونَ) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إننا معكما مقاتلون .

وقال الثانى : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله .

فسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

(وسعد بن معاذ — رضى الله عنه — هو رئيس الأوس من الأنصار، وهو الذى أشار ببناء عريش يستظل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال فى إبداء رأيه هذا : يا رسول الله ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ، وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام — يا نبى الله — ما نحن بأشد حبًّا لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك . فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا له بخير ثم بُنِىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه) .

وعلى الرغم من أن عدد مقاتلى مكة كان ثلاثة أمثال عدد المقاتلين من الصحابة فإن الله تعالى قد نصر الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة ، وقد شاء الله أن يقتل فى تلك الغزوة صناديد قريش ورءوس الكفر ، وعلى رأسهم أبو جهل أعدى أعداء الإسلام .

وقد رأيت صوراً مشرقة من كلام أسلافك الغر الميامين قبل المعركة ، فانظر إلى صورة مشرقة من أفعالهم فى المعركة ، فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحرِّض المؤمنين على القتال ويتوسل : والذى نفس محمد بيده ، لايقاتلهم اليوم رجل

فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . فقال سيدنا عُمير بن الحمام من بنى سلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن: بَخٍ بَخٍ (كلمة إعجاب) أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل ، رضى الله عنه .

وقد خفق رسول الله خفقة بعد أن دعا ربه بالنصر ، ثم انتبه من خفقته ، وقال لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه ، وكان معه فى العريش الذى يشرف منه على المعركة : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (الغبار) .

وكان النصر للمؤمنين ، وقتل من الكافرين سبعون ، وأُسِرَ سبعون ، فى حين لم يزد عدد شهداء المسلمين على أربعة عشر رجلا . وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

الملائكة فى غزوة بدر الكبرى :

ويحكى القرآن الكريم ما كان من عون الله للمسلمين فى قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۝ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ ؛ فانظر كيف تمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمدهم الله بثلاثة آلاف ، فأمدهم بخمسة آلاف ، وكيف قاتلت الملائكة فى صفوف المؤمنين ، ولم يكن لهم عهد بقتالهم ، فعلَّمهم الله بقوله الكريم فى سورة الأنفال : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ

الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)، فعلَّمهم ضرب الرقاب وضرب الأطراف التى يصيبون بها المقاتل ؛ ولله جنود السموات والأرض ، وقد قال ابن عباس : لم تقاتل الملائكة فى يوم سوى يوم بدر ، وكانوا فيما سواه عدداً ومدداً لا يضربون .

أقول : ولك أن تعجب بأمر تلك الهجرة الميمونة ، التى جعل الله بها من الغربة وطناً ، ومن الضعف قوة ، ومن الخوف أمناً ، ومن البعيد عوناً على القريب ، ولله يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه .

الأنصار يتحدثون بنعمة الله :

قال ابن إسحق :

« وقال أبو قيس صرمة بن أبى أنس (من بنى النجار) يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام ، وما خصهم الله به من نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة ... يُذَكِّرُ لو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى ... وكان له عوناً من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريباً ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل ما لنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
فوالله ما يلوى الفتى كيف يتقى ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا

عداوة اليهود والمنافقين :

قال ابن إسحق :

ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بغياً وحسداً وضغناً ، واستتر بالإسلام بعض العرب ، واتخذوه وقاية من القتل ، ونافقوا فى السر وكان هواهم مع اليهود .

ولما أصاب الله عز وجل قريشاً يوم بدر جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود فى سوق بنى قينقاع حين قدم المدينة ، (أى بعد معركة بدر) فقال : يا معشر اليهود : أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً ، فقالوا له : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ) .

إسلام عبد الله بن سلام :

قال ابن إسحق :

وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم ، وكان حبراً عالماً ، قال :

لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته ، واسمه ، وزمانه الذى كنا نتوكف (نترقب) له ، فكنت مسرًّا لذلك ، صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة

ابنة الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كَبَّرتُ ، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيّبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت .

فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به ، فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نُخْبَرُ أنه بعث مع نفس الساعة (أى رسالته علامة على قرب القيامة) ؟ فقلت لها : نعم ، فقالت فذاك إذن ، قال : ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا .

وكتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يا رسول الله : إن يهود قوم بهت (على الباطل) ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى .

فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه ، ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا ، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأومن به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ، فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث ، فحسن إسلامها .

قال ابن إسحق :

وفى أحبار اليهود الذين لم يسلموا ، وفى المنافقين من الأوس والخزرج ، نزل صدر سورة البقرة إلى المائة منها ، وقال الله للفريقين : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِى جَعَلَ

لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) . أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه ، ثم قال تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) .

قال ابن إسحق :

حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه : قال : قالوا : فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) . قال : كنا قد علوناهم ظهرًا فى الجاهلية ، ونحن أهل شرك ، وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون لنا : إن نبيًّا يبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من قريش فاتبعناه كفروا به .

كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر

قال ابن إسحق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صاحب موسى وأخيه ، والمصدق بما جاء به موسى : ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة ، وإنكم لتجدون ذلك فى كتابكم :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ

السُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً)، وإنى أنشدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباط المن والسلوى، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله، إلا أخبرتمونى: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كتمتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ) فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه.

قال ابن إسحق:

وحدثت عن سعيد بن جبير أنه قال: أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ قال فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه، ثم ساورهم غضباً لربه، قال فجاءه جبريل عليه السلام فسكّنه، فقال: خفّض عليك يا محمد، وجاءهم من الله بجواب ما سألوه عنه (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۝ اللهُ الصَّمَدُ[1] ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

فلما تلاها عليهم، قالوا: فصف لنا يا محمد كيف خَلقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال له مثل ما قال له أول مرة وجاءه من الله بجواب ما سألوه، يقول الله تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

---

(١) الصمد أى الذى يلجأ الناس إليه.

قال ابن إسحق :

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغَّبهم فيه ، وحذَّرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رَافع بن خارجة ومالك بن عوف : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم وخيرًا منا ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهما : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ!) .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض اليهود وقالوا له : يا محمد ، أما تعلم مع الله إلهًا غيره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله لا إله إلا هو ، بذلك بعثت . وإلى ذلك أدعو ، فأنزل الله فيهم وفى قولهم فى سورة الأنعام : (قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هٰذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَاأَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ) .

وأتى رسول الله جماعة من اليهود فقالوا : أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به الحق من عند الله؟ فإنا لانراه متسقاً كما تتسق التوراة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به، فقالوا عند ذلك: يا محمد أما يعلمك هذا إنس ولا جن؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأنى لرسول الله : تجدون ذلك مكتوباً عندكم فى التوراة ، فقالوا : يا محمد فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاءُ ويقدر منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه ونعرفه وإلا

جئناك بمثل ما تأتى به ، فأنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) .

بين الرسول والمسيحيين

قال ابن إسحق :

وقد ذكر الله أمر عيسى ردًّا على من اختلفوا فى أمره ثم قال تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) فَإِنْ قالوا خلق عيسى من غير ذكر ، فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة ، فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب من هذا .

ثم قال تعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) ، أى بعد ما قصصت عليك من خبره ، وكيف كان أمره ، (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) .

وقد دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الملاعنة فقالوا : دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، وخلوا « بالعاقب » وكان ذا رأى فيهم فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟

فقال : والله يا معشر النصارى ، لقد عرفتم أن محمداً نبىّ مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعَنَ قوم نبيًّا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوَادِعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم .

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا ألّا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا .

أقول : وللقارئ أن يعجب من هؤلاء الذين رأوا الحق بأنفسهم وجحدوه ولم يتّبعوه ، فحرموا أنفسهم من سعادة لا شقاء بعدها ، وسبحان من بيده ملكوت كل شيء (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

الغزوات والبعوث والسرايا :

وفى أثناء إقامته بالمدينة جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه من المهاجرين والأنصار أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين ، عربهم ويهودهم ، وكان جهاده لأعداء الدين جهاداً كبيراً ، قابل فيه المسلمون الشدائد بعزم مؤكد ، هو عزم أهل اليقين الذين تهون عليهم كل تضحية فى سبيل الدين ، ولا تعجب أن يكون ذلك شأنهم ، وقائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يتقون به إذا حمى الوطيس ، كما حدّث إمامنا على بن أبى طالب ، فقد قال كرّم الله وجهه : « كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو » ، وكانت للمسلمين بعون الله الغلبة الفائقة على أعدائهم ، ورضى الله عن إمامنا البوصيرى إذ يقول فى بردته المباركة بروحه الملهمة :

راعت قلوب العدا أنباء بعثته ... كنبأة[1] أجفلت غفلا[2] من الغنم
مازال يلقاهمو فى كل معترك ... حتى حكوا بالقنا لحمًا على وضم[3]
يجر بحر خميس[4] فوق سابحة ... يرمى بموج من الأبطال ملتطم

---

(١) النبأة : أى الصرخة الشديدة .
(٢) الغفل : أى البليد .
(٣) الوضم : ما يضع عليه الجزار اللحم .
(٤) الخميس : الجيش الكبير .

من كل منتــدب لله محتســب ... يسطو بمستأصل للكفــر مصطلم[١]
حتى غدت ملة الإسلام وهى بهم ... من بعد غربتها موصولــة الرحم
مكفولة أبداً منهم بخــير أب ... وخــير بعــل فلم تيتم ولم تئم
هم الجبال فسل عنهم مصادمهم ... ماذا رأى منهمو فى كل مصطدم
وسل حنيناً وسل بدراً وســل أحداً ... فصول حتف[٢] لهم أدهى من الوخم[٣]
شاكى السلاح لهم سيما تميزهم ... والورد يمتاز بالسيما من السلم[٤]
كأنهم فى ظهور الخيل نبتُ ربًا ... من شِدة الحزم لامن شَدَّةِ الحزم
ومن تــكن برسول الله نصرته ... إن تلقه الأسد فى آجامها تجم
أحــل أمته فى حــرز ملتــه ... كالليث حل مع الأشبال فى أجم

قال ابن إسحق :

وكان جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعاً وعشرين غزوة هى : غزوة ودان أو غزوة الأبواء ، ثم غزوة بواط ، ثم غزوة العشيرة ، ثم غزوة بدر الأولى ، ثم غزوة بدر الكبرى التى قتل فيها صناديد قريش ، ثم غزوة بنى سليم ، ثم غزوة السويق ، ثم غزوة غطفان أو ذى أمر ، ثم غزوة بحران ، ثم غزوة بنى قينقاع ، ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة ذات الرقاع ، ثم غزوة بدر الآخرة ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة ذى قرد ، ثم غزوة الفتح ، ثم غزوة حنين ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تبوك .

وقد قاتل صلى الله عليه وسلم منها فى تسع غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف .

وكانت بعوثه وسراياه ثمانية وثلاثين من بين بعث وسرية .

---

(١) مصطلم : أى مهلك .
(٢) الحتف : هو الموت .
(٣) الوخم : هو الوباء .
(٤) السلم : شجر له شوك يشبه شجر الورد .

فرض الهجرة :

خرج المسلمون مهاجرين بعد ثلاثة عشر عاماً من بعثته صلى الله عليه وسلم ، ثم عادوا إلى مكة فى السنة الثامنة من الهجرة فاتحين ، وكانت الهجرة فرضاً على المسلمين قبل فتح مكة ، أما بعد الفتح فلم تعد هجرة مفروضة ، لكن جهاد ونيّة ، ولهذا قال تعالى فى سورة النساء آمرًا بالهجرة وحاضًا عليها ، ومنذرًا المتخلفين عنها قبل الفتح: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا) .

أصحاب الأعذار :

وقد عذر الله المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لم تتهيأ لهم أسباب التخلص والزاد والراحلة حتى يهاجروا للحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وحين نزل قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ . . . . .) قال رجل من المسلمين وهو مريض ، وقيل اسمه ضمرة بن جندب ، والله مالى من عذر ، إنى لدليل فى الطريق ، وإنى لموسر ، فاحملونى فحملوه فأدركه الموت فى الطريق ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو بلغ إلينا لتم أجره ، وقد مات فى التنعيم[1]. وجاء بنوه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه بالقصة ، فنزلت الآية الكريمة : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) .

---

(١) مكان خارج مكة ببضعة كيلومترات ، ويحرم منه للعمرة ويقال له مسجد عائشة .

وقال الإمام البيضاوى فى تفسيره : إن ذلك المهاجر التَّقِىّ أشرف على الموت ، فصفق بيمينه على شماله فقال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك صلى الله عليه وسلم ؛ وتفيد الآية أن أجره ثبت عند الله ، والمراغم هو المتحول ، وهو من الرغام أى التراب ، وقيل يجد طريقًا يراغم بسلوكه قومه ، ويفارقهم على رغم أنوفهم ، وهو أيضًا من الرغام .

الفرار بالدين :

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى : قال ابن القاسم : سمعت ما لكًا يقول المراغم الذاهب فى الأرض ، وقال الإمام مالك أيضًا : هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المقام بأرض يسب فيها السلف ويعمل فيها بغير الحق ، والهجرة التى كانت فرضًا فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم وانقطعت بفتح مكة هى القصد إليه صلى الله عليه وسلم ، أما الهجرة وهى الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام فهى باقية مفروضة إلى يوم القيامة .

نصيحة :

أقول : فانظر كم تحمّل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكم تحمّل أصحابه ، وكم قاسوا الشدائد واقتحموا الصعاب فى توطيد دعوة الحق ، فلا تستهن أيها المسلم بدعوة الإسلام التى أتتك بيضاء كاللبن من بين فرث ودم ، وشد يديك على دينك ، واعتز به ، واحمد الله على هداك ، وانو الجهاد بنفسك ومالك إن دعيت للجهاد فى سبيل الله ، وجاهد نفسك التى بين جنبيك وألزمها آداب الإسلام ظاهرها وخافيها ، فالآداب الظاهرة حظ الجوارح ، والآداب الخافية حظ القلوب والأرواح ، ولا خير فى ظاهر لا يتفق معه الباطن ، وقد تعبّد الله الجوارح بالأفعال ، وتعبّد القلوب بالنيّات ، واجتنب الفواحش الباطنة ، والأخلاق الشيطانية السيئة من الرياء والنفاق والحقد والحسد ، والتبرم بالمقدور ، والكبرياء والعجب والخيلاء وما إلى ذلك .

ولتعلم أيها الأخ المؤمن أن أسلافك الشجعان الأمناء رووا لى ولك ولكافة المسلمين ، أنه كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحياء ، والسخاء ،

والتوكل، والرضا، والذكر، والشكر، والحلم، والصبر، والعفو، والصفح، والرأفة، والرحمة، والمداراة، والنصيحة، والسكينة، والوقار، والتواضع، والافتقار، والجود، والسماحة، والخضوع، والقوة، والشجاعة، والرفق، والإخلاص، والصدق، والزهد، والقناعة، والخشوع، والخشية، والتعظيم، والهيبة، والدعاء والبكاء، والخوف، والرجاء، واللياذة، واللجأ، والتهجد، والعبادة، والجهاد، والمجاهدة — ولا تستكثر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد شهد الله تعالى له بالخلق العظيم فى قوله الكريم: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، فتخلق بأخلاقه ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

وقد سئل الإمام سهل التسترى رضى الله عنه عن الكرامات، فقال: وما الكرامات؟ إن الكرامات شىء ينقضى لوقته، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك خلقاً محموداً. كما قال الإمام أبو على الجرجانى رضى الله عنه: كن طالباً الاستقامة لا طالبا الكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة. وقال الإمام الجنيد رضى الله عنه لرجل رآه فى رؤيا بعد موته وقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: راحت تلك الإشارات، وطاحت تلك العبارات، وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها عند السحر. وأخيراً لاتنس أن الله تعالى يقول لنا:

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا). والتقوى كما عرفها إمامنا علىّ كرّم الله وجهه هى الخوف من الجليل، والعمل بما فى التنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

أقول: وإذا كان الإسلام قد انتشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير الجزيرة العربية التى شعّ منها نور الإسلام فيها على يد رسول الله، فمحا ظلمة الكفر، فقد كان ذلك بفضل أصحابه الكرام، الذين نقلوا عنه صلى الله عليه وسلم الجهاد الدائم فى سبيل الله، مهما عظمت التضحيات لنشر دينه الذى أرسله الله به لكافة البشر، فلمن تبذل مجهودك إن لم تبذله لمعبودك، ألم يقل الله لى ولك وللمسلمين كافة (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً) ، فادع إلى سبيل ربك بكل ما تملك من وسائل، وادع أول ما تدعو نفسك التى بين جنبيك وهى الأقرب إليك، لتؤدى حق الإسلام عليك ، ولتكن عنايتك بنشر الإسلام بعد ذلك بين أهله من المسلمين ، فقد جانبوا أكثر آدابه الحقة ، وحادوا فيها عن الصراط المستقيم ، ولولا أن الإيمان بالله ورسوله لا يزال يحلّيهم ليئسنا من إصلاحهم ، فقد تعادوا أفراداً وشعوباً وقبائل وأمماً وكانوا متحابين ، وتحاسدوا وكانوا بما آتى الله بعضهم فرحين ، وأهملوا العبادات بعد أن كانوا بها يزدهرون ، وولعوا بتقليد غيرهم بعد أن كان الناس بهم يقتدون ، وما أغناهم عن التقليد ، وما أحوج غيرهم إلى عقيدة الإسلام وآدابه التى أغنانا الله بها من فضله، فوا إسلاماه !! ، وإذا كنا فى الماضى نعز و ما حل بنا من فساد الأحوال للاستعمار، فقد نفضنا عاره عنا وصرنا أحراراً فى بلادنا الإسلامية وتهيأت لنا فرصة لإصلاح ما فسد .

فإن نحن أبرزنا أثر الإسلام فى سلوكنا كأُمة ، كانت تلك أعظم رعاية عملية للإسلام فاستغنينا بها عن كثير الكلام ، إن الأُمم الأعجمية رحبت بالإسلام حين رأوا من أسلافنا الصالحين عدلا شاملا فى الأحكام ، تنفيذاً لأوامر الله، فقد قال تعالى : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ، فإن نحن انتهينا عن الفحشاء والمنكر والبغى عادت لنا سيرتنا الأولى ، وكنا كأسلافنا صالحين .

نحن وأسلافنا الصالحون :

وإذا ذكرت أسلافك الصالحين أيها القارئ الكريم فاستغفر لهم كما علمك الله بقوله تعالى فى سورة الحشر : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِين سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيم) .

لقد جاءك الإسلام يا أخى سهلا ، لأنهم تحمّلوا عنك فيه الصعب ، فاذكر الفضل لأهله ولا تكن من الجاحدين ، فما أبر الخلف إن ذكروا بالفضل السلف ، وما أحق سلفك بوفائك ، وما أجدرهم بدعائك وهم فى رضوان الله ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فاصدق معهم فيما أدبك الله به ووجهك إليه، وكيف تبخل عليهم بدعائك وقد جادوا من أجلك بأرواحهم ، وخلفوا لك السعادة فى إسلامك ؟!